



أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

د. مظهر محمد صالح*: تأملات في التاريخ الاقتصادي للعبودية: يوم تجارة الرقيق

١- تمهيد. هالني عنوان تصدرت صحيفة Sunday Express البريطانية في عددها الصادر صباح يوم الاحد 26-حزيران/يونيو 2022 بدعوة ولي العهد البريطاني جارلس وهو في صحوة ضمير ينادي بضرورة تعليم تلامذة المدارس في بلاده عن دور بريطانيا وموقعها في تجارة الرقيق وهو يتحدث بأسى عن ذلك الدور الداكن بازدهار تجارة الرقيق العابرة للمحيط الاطلسي transatlantic slave trade ودعى ولي العهد الى افراد يوم يسمى:(يوم تجارة الرقيق) وبالطريقة نفسها التي تتذكر فيها الامة البريطانية محارق النازية وغيرها. ويرى ولي العهد ان ذلك سيؤدي الى تحسين التعليم صوب معرفة الايام السوداء black days للإمبراطورية البريطانية ويساعد في الوقت نفسه على دمل جروح الانقسام بين المملكة المتحدة وبلدان الكومنويلث والانطلاق جميعاً الى امام.

ويجد ولي عهد بريطانيا(الامير جارلس)بأن هذه الخطوة في التعليم ستساعد الاجيال على فهم ذلك الارث التجاري الذي ساهمت فيه بريطانيا بنقل 3,1 مليون انسان افريقي بشكل رقيق الى مستعمراتها بين العام 1640 و العام 1807 -تاريخ الغاء الرق في بريطانيا). اذ مثل الرق الجزء المهم في بناء التراكم الاولي لرأس المال initial accumulation of capital خلال عهد الرأسمالية التجارية او الميركانتالية - mercantilism والتي ظل شعارها (اينما تصل الرايات تصل التجارة، وان الراية والتجارة يتحركان معاً trade and flag move together) كي تدخل بريطانيا بعدها عصر الثورة الصناعية الاولي وتتبدل اساليب التراكم الرأسمالي بدواليب المصانع وظهور الشغيلة والبروليتاريا الصناعية في العام 1830.

٢-الرق بين الشاي الأسود والسكر الابيض. امتلأت اقداح الشاي ببثورات السكر الشديد البياض ثائية وبسرعة وخفة متناهية، قبل ان يُغرق صاحب مقهانا أقداحنا بسائل الشاي الذي تكحل بلون شديد السواد وهو يتدفق بسخاء من ذلك الابريق الذي دُفن بين احضان الخشب اللاهب. قلت لصاحب المقهى وهو منشغل بنار موقده، انها مفارقة بين سائل الشاي الذي تفحم بلونه وبين بلورات السكر الابيض التي سطعت ببياضها، انهما لوانان متناقضان في مكان واحد!. ابتسم الرجل وهو يقلب عيناه تجاه



أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

ناظريه بحكمة وود واحترام وبدا لأعينهم هادئاً مطمئناً قوياً رائعاً، قائلاً: ان التناقض يخلق الانسجام! وان في الاسرة الواحدة لا يوجد مكان للأسياد او العبيد! ذكرني هذا الرجل الحكيم صاحب مقهانا بحقيقة السكر ومرارته في تطور التاريخ الاقتصادي للرقيق، فالشاي الاسود والسكر الابيض هما حقيقتان في تاريخ الصراع الدامي بين الرجل الابيض والرجل الاسود في العهود الاستعمارية الماضية، اي منذ القرن السادس عشر الميلادي، يوم شهدت الانسانية مآسي محزنة على حافات الاطلسي الافريقية. قلت في سري، كلنا مدينون في تناولنا لأقداح الشاي الاسود وهو يغرق ببلورات السكر الابيض اليوم، لأولئك الرجال السود الذين سرقهم البيض من القارة السمراء بما فيهم ذلك الصبي الذي انتزعه البيض من ذراعي امه وهي تصرخ ليلقوا به في سفن صيد البشر التي حطت بوحشيتها على شواطئ افريقيا الغربية وهي متجهة الى العالم الجديد من دون رحمة! فحتى تاريخ يوم تحريم العبودية في بريطانيا في العام 1807 ميلادية، كما ذكرنا آنفاً، كان عدد الأفارقة الذين جرى صيدهم وترحيلهم الى العالم الجديد بحراً قد بلغ 11 مليون انسان وان نصفهم قد انتهى في مزارع قصب السكر وان الملايين قد قضوا نحبهم عند محاولتهم الفرار والرجوع الى اذرع والديهم او زوجاتهم في القارة السمراء!. يقول المؤرخ والسياسي اللاتيني (أريك وليامز)¹: "إن العبودية لم تولد من رحم العنصرية، بل ان العنصرية ولدت من رحم العبودية!" لقد توج القرن الثامن عشر نهاية زواج العبودية بالسكر، بعد ان استعمرت اكثر جزر البحر الكاريبي، وان الجانب الاكثر دموية كان ما يسمى بالتجارة المثلثة للسكر، حيث أخذت السفن التجارية للأوروبيين البيض المحملة بالسكر وهي تجوب سواحل افريقيا الشرقية هذه المرة لمبادلة السكر مقابل العبيد ليزج بهم في مزارع السكر في العالم الجديد ثانية ولاسيما في مناطق الكاريبي والبرازيل وغيرها والتي سميت في التاريخ الاقتصادي (بدورة السكر-العبودية). تقول الكاتبة والمؤرخة الكندية (اليزابيث أبوت) في كتابها الصادر في العام 2008 والموسوم (السكر: مرارة الحلوى) وهي تنقل نصاً لاحد القادة العسكريين واسمه ولیم فوكس، ممن ركب البحر، وهو يتناول خطيئة اوروبا ليجسد احساسه بالشعور المخجل والمرارة لما جرى للإنسانية السوداء باصطياد الجنس الاسمر من القارة الافريقية واستعبادهم كقوة عمل في مزارع قصب السكر فيما سمي بالعالم الجديد، منوها فوكس بالقول: "إن كل باوند (سكر) يجب ان ينظر اليه على انه جاء من اقتطاع اونسين من لحم البشر!" ومع تطور الزمن وتصاعد الطلب العالمي على السكر وتحوله من صنف التوابل لندرتة في القرون

¹ راجع أطروحته:

Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (London: Andre Deutsch, 1964, first ed. 1944)
(المحرر)



أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

الماضية الى مادة خام غذائية تستهلكه الطبقات المتوسطة والفقيرة، تزايد انتاج السكر واستهلاكه عالمياً وبشكل لافت، حيث غدا انتاج العالم السنوي من السكر في الوقت الحاضر يزيد على 160 مليون طن متري، في حين لم يتعد انتاجه العالمي السنوي في العام 1900 سوى 14 مليون طن متري، وكانت حصة المواطن البريطاني او الاميركي منه لا تتعدى 21 كيلوغراماً سنوياً في مطلع القرن العشرين. ارتفعت حصة (المواطن الاميركي) اليوم على سبيل المثال الى 35 كيلو غراماً سنوياً او ما يعادل 22 ملعقة شاي ممتلئة بالسكر يومياً. وتعد البرازيل في طليعة البلدان المنتجة للسكر في العالم، حيث تستحوذ على انتاج اكثر من 20 بالمئة من الانتاج العالمي منه وتصدر قرابة 42 بالمئة من حاجة العالم اليه، وان 72 بالمئة من السكر ينتج من القصب لا سيما في المناطق المدارية وشبه المدارية من العالم، وان البنجر السكري الذي يوفر اكثر من 12 بالمئة من انتاج العالم للسكر يزرع في المناطق الباردة المطرية. وتعد الهند ثاني اكبر منتج للسكر في العالم وتستحوذ على 14 بالمئة من انتاجه العالمي، يليها الاتحاد الاوروبي وتايلند وبواقع انتاج بلغت نسبته 11 بالمئة لكل منهما على التوالي واستراليا بواقع 8 بالمئة سنوياً. وهكذا، كان العالم، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، ينظر الى السكر نظرة استراتيجية وعلى غرار ما ينظر الى النفط ودوره الآن في السوق العالمية. وان البرازيل التي اضحت المنتج الاول في العالم للسكر هي من يقود العالم في الوقت الحاضر في تحويل السكر الى وقود اخضر (أثينول) والذي يباع في محطات الوقود في تلك البلاد، وان غالبية محركات السيارات المستخدمة في البرازيل تعمل حالياً بالوقود المزدوج (الاثينول او البنزين) واذا ما قام الاتحاد الاوروبي واميركا برفع التعرفة الكمركية عن (الاثينول) البرازيلي المنتج من قصب السكر، فإن السكر سيعود الى سابق عهده وتصبح اهميته كأهمية الوقود اليوم في اسواق الطاقة شريطة: ان يتبدل لون السكر من الابيض الى الاسود! وان تعوض افريقيا السوداء التي نكبت بشبابها، وافرغت من قوة عملها المنتجة في القرون الماضية، تعويضاً عادلاً لها ثمنه قيمة (الاثينول) المنتج من السكر لتنهض في ثروتها البشرية!

٣- مسابح العنصرية: جدلية الرق والاستيطان. ايقظتني الصورة العنصرية المحزنة من فوري وانا اتطلع الى لقطة مرعبة يعود تاريخها الى العام 1964 وهي لرجل عنصري ابيض يحاول ان يسكب سائلاً حامضاً حارقاً في مياه مسبح كانت تسبح فيه سيدة سوداء ربما في واحدة من مدن الجنوب الافريقي كي تغادر المسيح قسراً! فبعد ان اختلط لدي ذهول الكيف بوجود الفكر، وانا من يهتم بسعادة الناس مهما كان لون بشرتهم الى حد إشقاء نفسي، عاد بي ثعلب الذكريات المؤلمة ليصدمني كرة أخرى بالأنسام التي تداعب سعير افكارنا من اجل الحرية في جميع الاحوال وفي اي مكان ومهما كان لونها من العالم. فتذكرت خريف سبعينيات القرن الماضي، يوم اختلط لدي



أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

لون العشب الاخضر بلون البشرة السوداء عندما حطت الطائرة التي استقبلتها ارض العاصمة الموزمبيقية موبوتو، التي كانت تسمى (لورنكو ماركيز Lourenço Marquez نسبة الى المكتشف البرتغالي من القرن السادس عشر) وتشكلت يومها في وجداني لوحة انسانية واسعة في مرتسم الحريات. فهذه البلاد التي استقلت في العام 1974 بعد حرب التحرير ضد الاستعمار البرتغالي و قادتها جبهة تحرير (فريليمو FRELIMO) بزعامة الثائر الشاب سومورو ميشيل، قد بدت يومها خالية من اي جنس آخر سوى الجنس الوطني الاسود، اذ زرتها بُعيد الاستقلال، ويوم غادرتها الادارة العنصرية البيضاء كلها، بما فيهم عمال صيانة المواسير و عمال الكهرباء ومصالحو الحافلات من المستوطنين البرتغاليين البيض، فأمست البلاد وقتها خالية تماماً من العنصرية البيضاء ولكن أفرغت حقاً من القوة الفنية المهمة والاساسية في آن واحد. انها بلاد سوداء جميلة مطعمة ببقايا ضئيلة من الاجناس الاخرى من الهنود او من ذوي الاصول العربية وهم من الناشطين في إدارة الشؤون الرسمية للبلاد بعد التحرير او بقاء نساء من الجنس الابيض واللواتي اصبحن زوجات بعض المسؤولين الموزمبيقيين، ممن اقترن بامرأة شقراء برتغالية الاصول في وفاق ومحبة لتناسي الماضي العنصري الأليم. كانت غرفتي تطل على مسبح مياه هادئة زرقاء تتلاصق مع امواج المحيط الهندي. فعندما استيقظت في صباحي الاول، وانا اتطلع الى الطبيعة الغناء واتذكر يوم كانت العاصمة الموزمبيقية (لورنكو ماركيز) منتجعاً للأثرياء البرتغاليين قبل ان يستبدل اسمها بعد التحرير الى (موبوتو) تساءلت: لماذا لا اجد احداً يسبح في مياه هذا المحيط العظيم او في هذا المسبح الأخاذ في جمال مياهه؟ اجابني رجل موزمبقي وهو يتنفس الصعداء قائلاً: انك ايها القادم من حوض المتوسط تسكن هنا اليوم في واحدة من القلاع الصعبة التي حررتها الثورة الموزمبيقية. ففي هذا الفندق الذي شيد في عشرينيات القرن الماضي كان يحظر على سكان البلاد السود الاقامة فيه او السباحة في هذا الحوض او غيره. وان المسبح الذي امامك تعرّض في واحدة من السنوات الى حادثة فصل عنصري شنيعة ذلك عندما جازف شاب اسود من العاملين في الفندق الى ممارسة السباحة في هذا الحوض اثناء استراحته. قلت وماذا كانت النتائج؟ اجابني انقض عليه احد الرجال البيض ورماه بمنشفته البيضاء، فالتفت على رقبتة وسحبه ومعه صحبه ليخرجونه من المسبح بعد ان انهالوا عليه ابتداءً بالضرب ... واختلط نزييف دمه بمياه جسمه الندي، ومن شدة بكائه فحتى الألم لم يعد يشعر به! واستمر البيض بالضرب حتى فقد الشاب وعيه. وجرى على الفور استبدال مياه مسبح الفندق الزرقاء بمياه بيضاء عنصرية بغیضة. ولكن قبل ان يمتلئ المسبح بمياهه المخضبة بالعنصرية، وقبل ان ينصرف الجميع، اقترب زميل الضحية وهو يهمس في أذنيه، يؤسفني ايها الشاب البريء ان اخبرك بأن امرأ قد صدر من ادارة الفندق يقضي بطردك من العمل واحالتك الى القضاء العنصري لانتهاكك حرمة



أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

المياه البيضاء بجسدك الاسود! تأسفت كثيراً، وقلت لمحدثي، الرجل الموزمبيقي الوطني، اين هم العنصريون البيض اليوم؟ اجابني لاجود لهم .. انهم فقدوا الشكل واللون واختفوا تماماً من هذه البلاد السمرراء، ولم يعد يوجد منهم شيء يُرى بالعين المجردة. وليس ثمة اليوم في موزمبيق الحرة الا صوت واحد يعلو دوماً هو صوت الحرية ولون واحد يسطع في الافق هو ارادة الحياة، وهي التي تجعلنا نحن الجنس الاسود نسمو بها على انفسنا من اجل ان لا تتبدل مياه مسابحننا بأوعية بيضاء بغیضة تتشبث بالحياة وهي تنتحر في عقولها العنصرية!

٤- العبودية في القرن الحادي والعشرين. فاجاني سائق حافلاتي وهو رجل ودود مبتسم دون الخمسين وهو ليس مرحاً كعادته عند قيادته للحافلة صباحاً، قلت: ماذا دهاك يا يوسف في هذا الصباح المشرق وانت مكسور الجناح ولا يعجبك الحال وهل انك تعاصر قصة حب طويلة؟ اجابني كلا، اني اخاف المستقبل. قلت له كيف؟ جابني ان المستقبل هو ليس خطا مستقيماً، وانني اخاف الفقر والظلام والمجهول والموت. اجبته: ما الذي جعلك تفكر وكأنك في مطلع القرن التاسع عشر عندما كان اكثر من نصف سكان الارض قد ثلّمت انسانيتهم بين عبد او خادم كما اخبرنا التاريخ الاقتصادي للعبودية؟ اجابني مهموماً: الخوف على اولادي من عولمة الفقر والفاقة! فمئذ العصور الخالية وحتى القرن الحادي والعشرين لم تنفك البشرية من العبيث في الجنس الانساني والتصرف به كسلعة في قبضة سوق الرقيق . انها سوق العبودية التي لاتزال تمسك بأظافرها الحديدية بنحو 30 مليون انسان/عبد حتى اللحظة، وهم ممن انتهى بهم الامر الى حُجر الحياة المغلقة وانهم غدوا لا يخافون من شيء بعد ان هجرتهم الحياة وجف معينها ليحتضنهم جنس آخر كالح الوجه ينتظر من ضحيته ان يفرغ عرقه جاهداً في وعاء العبودية الجافة وفي سيناريوهات داكنة لانهاية لها. قلت له: نعم. فالعبودية هي نظام يعامل الناس كسلعة مملوكة تخضع للبيع والشراء وتجبرهم على العمل ضد ارادتهم، سواء منذ الولادة او عند الشراء او هم تحت ارادة القوة المستغلة لهم وحرمانهم من حق المغادرة وحق رفض العمل وحق التعويض. قال: ألا ترى ان الاكراه على الزواج وتشغيل الاطفال الذي بلغ عددهم اليوم بنحو 250 مليون طفل مشتغل في سوق العمل الرخيص في العالم بين سن الخامسة وحتى دون سن الخامسة عشر، فضلاً عن تجنيد بعضهم على حمل السلاح، هو نمط من انماط العبودية؟ قلت له: نعم وان جنوب آسيا لاتزال حتى اللحظة تستعبد الجنس البشري في سداد الديون وان اغلب حالات العبودية في آسيا تأتي استيفاءً للديون. ويلاحظ ان العمل الاجباري يعد شكلاً من اشكال العبودية ابتداءً من تشغيل السجناء بأعمال السخرة وانتهاءً بأشكال العبودية المعروفة تقليدياً. لقد امسى الاتجار بالبشر والعبودية واحدة من المشكلات الكبرى في الاقتصاد العالمي الحديث. وان عشرات



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net

أوراق في التاريخ والفكر الاقتصادي

المليارات من الدولارات قد جرى تحصيلها منذ مطلع الالفية الثالثة وحتى اليوم في التجارة البشرية، اذ لا يزال تجار العبيد حتى اليوم في مناطق حوض الكونغو يقومون بختف النساء والرجال ومن ثم يجري ابتياعهم في اماكن بعيدة ليمضوا حياتهم جبراً عند اسيادهم الجدد بعيداً عن اهلهم. ويلحظ ان البعض يُجبر على هجرة وطنه عبر إغراءات عصابات منظمة وتحت ذريعة البحث عن العمل لهم في اماكن خارج بلدانهم ليتم بيعهم كعبيد افتراضيين لقاء تكاليف نقلهم ومصاريف إيصالهم الى اماكن العمل البعيدة ومن دون توافر القدرة على العودة. وان النساء هن الجانب الاكثر ظلماً في هذا المسار، فعودتهن الى اوطانهن بسبب العمر او المرض يعني تعرضهن لمشكلات غسل العار وغير ذلك من اعمال الابداء الوحشية. قلت لسائقي يوسف: لا تقلق على مستقبل اولادك، نحن سكان شرق المتوسط نخلف عن بقية العالم، فطفولتنا تحظى برعاية ولطف عاليين وتضامن انساني وعائلي منقطع النظير، ولا تحبط عما يجري في قارات العالم من حولنا، فحتى الهند والنيبال قد تبدلتا بعد ان كانتا من اكثر بلدان العالم تشغيلاً للأطفال، اذ تجد اليوم في طرف السجاد الهندي او النيبالي المصدر الى العالم شهادة تعهد تقول بأن هذه السجادة لم يشترك الاطفال في صنعها وانها لم تستعبد احداً في حياكتها! ختاماً، ابتسم يوسف قبل ان اترك حافلته وقلت له: كن متفانلاً ولا تُستدرج الى الهاوية وان سفينة الحياة تسير من دون حاجة الى رأينا او معاونتنا طالما ان وقودها السلام والحرية. ■

(* باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي، المستشار المالي لرئيس الوزراء العراقي).

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الاشارة إلى المصدر. 28 حزيران 2022

<http://iraqieconomists.net/ar/>